المبحث الثالث

التجانس

كان للذوق العربي اثر بالغ في تحسس جمال اصوات اللغة العربية وايقاعها وانسجام انغامها الناتج عن ائتلاف الاصوات والالفاظ، ولاريب ان لهذا الانسجام اثرا واضحا في جمال الجناس بوصفه مبحثا صوتيا اولفظيا، ومما لاشك فيه ان التجانس يكسب الكلام جمالا وقدرة على التأثير عن طريق الايقاع الذي تطرب له النفس شرط ان يكون التجانس بعيدا عن التكلف، وان يكون المعنى هو الذي استدعاه، وهو ماكده الشيخ عبد القاهر الجرجاني بقوله: (ان مايعطي التجنيس من الفضيلة امر لم يتم الا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن))[1]، فان عد الجناس من صور الالفاظ فان الحسن فيه يرتكز على تادية المعنى دون تكف أو استكراه.

التجانس لغة:

التجانس والمجانسة والتجنيس من الجنس، والجنس اعم من النوع، يقال: هذا يجانس هذا أي يشاكله[2]. وهكذا فان المصطلحات العديدة لهذا اللون البلاغي تعود إلى اصل واحد ((فالجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس كلها الفاظ مشتقة من الجنس))[3].

التجانس اصطلاحا:

على الرغم من تعدد تعريفات علماء العربية للتجانس إلاّ انها تتفق في ان التجانس هو تشابه اللفظين في النطق مع اختلافهما في المعنى[4].

ومما لاشك فيه ان التجانس قديم قدم اللغة العربية، وانه غالبا مياتي في كلام العرب دون تكلف أو تصنع، بل يصدر عن الطبع والفطرة التي تظهر ميل العربي إلى الانسجام والتماثل في الفاظ كلامه. لذا لابد لنا من نظرة سريعة لطبيعة هذا الفن عند علماء العربية السابقين الرماني.

التجانس عند السابقين للرماني:

---

(1) اسرار البلاغة /12.
(2) =: ل: 43/6، مادة (جنس).
(3) انوار الربيع: 97/1.
(4) =: قواعد الشعر /64، كتاب البديع /65، نقد الشعر /185.

المتتبع لهذا الفن البلاغي يجد ان اول إشارة له بهذه التسمية عند الخليل إذ يقول: ((الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض ونحوه، فمنه ماتكون الكلمة تجانس اخرى في تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها مثل قول الشاعر:

يوم خلجت على الخليج نفوسهم

اويكون تجانسها في تأليف الحروف دون المعنى مثل:

ان لوم العاشق اللوم))[1]

ثم نجد إشارة إلى معنى التجانس عند سيبويه بقوله: ((اتفاق اللفظين والمعنى مختلف))[2].

وتحدث الفراء عن معنى التجانس دون تسميته، وذلك خلال تفسيره لبعض الايات، كقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ ﴾[3]. إذ يقول الفراء عن ذلك: ((ليس بعدوان في المعنى إنما هو لفظ على مثل ماسبق قبله))[4].

كما تحدث ابن قتيبة عن معنى التجانس دون تسميته وذلك في باب (مخالفة ظاهر اللفظ معناه) إذ يقول: ((ومن ذلك الجزاء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[5] أي يجازيهم جزاء الاستهزاء))[6]، ولا شك أن ما ورد عند الفراء وابن قتيبة قد عرف فيما بعد عند البلاغيين بالمشاكلة.

ويتحدث المبرد عن معنى التجانس دون تسميته أيضاً إذ يقول: ((يخرج اللفظ كلفظ ماقبله كقول العرب، الجزاء بالجزاء والاول ليس بجزاء))[7].

أمّا ثعلب فيتحدث عن التجانس ويسميه: ((المطابق، وهو تكرير اللفظة بمعنيين مختلفين))[8] كقوله طرفة[1]:

---

(1) البديع /25.
(2) الكتاب:24/1.
(3) سورة البقرة: من 194.
(4) معاني القرآن: 116/1.
(5) سورة البقرة: من 14و 15 .
(6) تأويل مشكل القرآن /277.
(7) ما اتفق لفظه واختلف معناه /13 - 15.
(8) قواعد الشعر /64.

كريم يروي نفسه في حياته ستعلم ان متنا صدى اين الصدى

وهو هنا يتحدث عما سمي بالجناس التام.

ويعقد ابن المعتز بابا للتجانس وهو عنده ((ان تجي الكلمة تجانس اخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها ان تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي الف الاصمعي كتاب الاجناس عليها))[2] ويقول أيضاً ان المجانسة هي ((ان تكون الكلمة تجانس اخرى في تأليف حروفها ومعناها وما يشتق منها))[3].

ويأتي قدامة ليعقد بابا بعنوان (المطابق والمجانس) وهما عنده داخلان في باب ائتلاف اللفظ والمعنى ومعناهما ((ان تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة والفاظ متجانسة مشتقة، فاما المطابق: فهو مايشترك في لفظة واحده بعينها مثل قول زياد الاعجم[4]:

ونبئتهم يستنصرون بكاهل وللؤم فيهم كاهل وسنام

واما المجانس فان تكون المعاني اشتراكها في الفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق كقول النعمان بن يشير لمعاوية بن ابي سفيان[5]:

الم نبتدركم يوم بدر سيوفنا وليلك عما ناب قومك نائم

وهكذا نجد ان (المطابق) عند ثعلب وابن المعتز وقدامة هو (الجناس التام) أمّا (المجانس) فهو (جناس الاشتقاق)[6].

وقد كان للامدي تعليق على تسمية قدامة ضربا من التجانس بالمطابق -على الرغم من ان ثعلب قد سبق الاخير في التسمية -إذ يقول الامدي:

---

(1) ديوانه /33، و =: قواعد الشعر / 65، ورواية الديوان (ستعلم ان متنا غدا اين الصدي): والصدى: العطش، والصدى: الهامة.
(2) البديع / 25.
(3) م ن /25.
(4) شعره / 155، كاهل الاول، سند ومعتمد، والثاني: اعلى الظهر مما يلي العنق.
(5) نقد الشعر /185-188.
(6) ويسمى (الاقتضاب) و (المقتضب) وهو ان تجيء بالفاظ يجمعها اصل واحد في اللغة. =: حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين الحلبي (ت725هـ) /193، ونهاية الارب في فنون الادب، شهاب الدين النويري (ت733هـ):95/7، ومعترك الاقران:304/1.

((وما علمت ان احدا فعل هذا غير ابي الفرج فانه وان كان في هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات وكانت الالقاب غير محضورة فاني لم اكن احب له ان يخالف من تقدمه مثل ابي العباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الانواع وألف فيها إذ قد سبقوا إلى التلـقيب وكفوه المؤونة))[1].

وهكذا نجد ان التجانس عند علماء العربية -قبل الرماني - قد كان واضحا على الرغم من تعدد التسميات والتقسيمات، وقد تشابهت اقوالهم فيه فضلا عن تشابه الامثلة والشواهد وتكرارها، ومما تجدر الإشارة إليه ان مسالة الاشتقاق في التجانس قد اشير إليها من قبل عند الخليل وابن المعتز وقدامة وهي بلا شك اشارات إلى مايسمى بالجناس المشتق والذي ترجع فيه الالفاظ إلى اصل واحد وهو يختلف عن (المطلق) أو مايسمى بـ (المشابه) الذي لايعود طرفاه إلى اصل واحد ويتفقان لفظا وخطا[2].

التجانس عند الرماني

يشير استقراء اقوال العلماء -السابق ذكرها -في التجانس انهم اكدوا على شروطه الاساسية، منها: التاكيد على ان التجانس يكون في تأليف الحروف وكذلك في اتفاق المعاني واختلافها ومنهم من أشار إلى انواع منه كالاشتقاق ودوره في التجانس، ولكنهم لم يشيروا في اقوالهم تلك إلى جوانب اخرى لاتقل اهمية عما ذكر، ولاشك انهم كانوا على علم بها، وبوصفها من البدهيات المسلم بها انذاك لم يؤكدوا عليها، واول هذه الجوانب: (عدم التكلف) في الالفاظ المتجانسة، فالتكلف في التجنيس وقصد المماثلة اللفظية وجمالها دون مراعاة مدى تاديتها للمعاني هو مما يعيب التجنيس.

وقد خلت اقوالهم -على الرغم من تاكيدها على اتفاق اواختلاف المعنى واللفظ في التجانس- من الإشارة إلى جانب آخر وهو (روعة المعاني) وسموها والى ان يكون المعنى تابعا له، وخلت اقوالهم أيضاً من الإشارة إلى فصاحة الالفاظ المتجانسة، فقد ياتي بين لفظتين تخلو كل منهما من هذه الصفة ويكون ذلك سببا في تدني مستوى النظم وضعفه في اداء وظيفته الجمالية.

(1) الموازنة: 275/1.
(2) =: انوار الربيع:98/1.

يقول الرماني في التجانس انه: ((بيان بانواع الكلام الذي يجمعه اصل واحد في اللغة))[1]. وننظر إلى هذا القول نظرة فاحصة نتامل الفاظه وماتضمه من معان ودلالات، لنجد الرماني قد عبر عن تجانس البلاغة بلفظة (بيان)، واصل البيان الكشف والظهور، والبيان اظهار المقصود بابلغ لفظ[2]. وتجمع كلمة (بيان) عند الرماني كل ما ادرك قوله العلماء في التجانس وكل مالم تتضمنه اقوالهم مما اشرنا إليه، فهي تضم التعبير عن فصاحة الالفاظ المتجانسة ليؤدي التجانس وظيفته الجمالية بلفظ بليغ، لأن البيان هو الفصاحة، ويطلق أيضاً على كل واحد من المعاني الثلاثة (اعلام وتبين ودليل)[3]، كما ان ابا الحسن قد جمع بهذه اللفظة الإشارة إلى (روعة المعاني) ذلك ان البيان هو ((المنطق الفصيح المعبر عما في الضمير))[4]، وقد أكّد الجاحظ على ذلك من قبل بقوله: ((البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته))[5] كما أكّد ابن رشيق فيما بعد ان البيان هو الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس[6]. وقد ادرك الرماني أيضاً ان هذه اللفظة (بيان) تتضمن الإشارة إلى شرط (عدم التكلف) في التجانس إذ ان البيان يحترز به عن التعقيد المعنوي وبذلك يكون متعلقا بالمضمون[7]، ولاشك ان التكلف يقود إلى التعقيد.

ومما تتضمنه هذه اللفظة أيضاً، الاثر النفسي للتجانس وما يحدثه في النفس من الناحية اللفظية والمعنوية، فمن جهة اللفظ نجد ان النفس العربية ومنذ القدم تميل إلى هذه الظاهرة وتطرب لها وكان الالفاظ المتجانسة تداعب اوتار القلوب وتثير المشاعر والاحاسيس وتحرك الوجدان، ومن جهة المعاني فان التجانس يجذب القاريء للتامل والكتاب عن المعنى في هذه الالفاظ ودلالاتها، ومن ثم مدى ادائها له وما اضفاه التجانس على المعنى من ظلال موحية لاتؤديها الالفاظ الاخرى، ثم الجمع بين الناحيتين اللفظية والمعنوية، ليظهر المعنى وقد ازدان باجمل الالفاظ وابلغها شكلا وادقها مضمونا. وقد اودع

(1) ر/99.
(2) =: ل: 69/13، مادة (بين).
(3) =: كشاف اصطلاحات الفنون: 153/1.
(4) كشاف اصطلاحات الفنون: 153/1، و =: الكليات:395/1.
(5) البيان والتبيين:76/1.
(6) =: العمدة:254/1.
(7) =: المعجم الادبي، جبور عبد النور /53.

الرماني في لفظة (بيان) وظيفتي التجانس (الدلالية والجمالية) إذ يرى ان حسن البيان في اعلى مراتبه ماجمع اسباب الحسن في العبارة من ((تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد وحتى ياتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة))[1].

بعد ذلك أكّد الرماني على ان هذا البيان هو (بانواع الكلام)،ولاتقل هذه الاضافة عن لفظة البيان ودلالاتها، ذلك ان البيان قد يكون بالكلام والفعل والاشارة والرمز،إذ الكل دليل ومبين على الرغم من ان اكثر استعماله في الدلالة بالقول[2]. وقد أكّد الجاحظ من قبل على ذلك مع بعض الاختلاف في الالفاظ كالحال والنصبة والاشارة، وهو ما تناولناه في مبحث البيان، فتقول الرماني (بانواع الكلام) جاء احترازا من ان يفهم البيان هنا مطلقا فيخرج القول عن القصد. فلفظة (انواع) قد احترز بها عن ان يكون التجانس هو مانجده بين اللفظتين من تجانس في تأليف الحروف وعددها وترتيبها وحركاتها فهذه اللفظة قد شملت الكثير من انواع التجانس التي عرفت فيما بعد لولا انه قيد التعريف بعد ذلك،أمّا لفظة (الكلام) فقد جاءت جامعة لانواع الالفاظ التي يقع فيها التجانس، إذ قد يقع التجانس بين لفظتين الاولى مفرده والثانية مركبة من لفظتين وهو مايسمى (بالجناس المركب كقولهم):

عضنا الدهر بنابه ليت ماحل بنابه[3]

فالكلمة عند النحاة قد تعني (الكلام) وهو: ((التعبير عن الفكرة أو الشعور أو الارادة بنظام من الاصوات والرموز الدالة على معان))[4] فضلا عن ان (الكلام) اسم جنس يقع على القليل والكثير[5]. كما ان قوله (انواع الكلام) شامل للتجانس الحاصل بين الاسماء أو الافعال أو غير ذلك مما يشتق منها.

وبعد ان ابدع الرماني في حد التجانس بهذه الالفاظ الجامعة، قيد ذلك الاطلاق بان قال (الذي يجمعه اصل واحد في اللغة) فقد وضع قيدا للالفاظ المتجانسة بانها يجب ان تعود إلى اصل واحد في اللغة،وهو مايسمى بالجناس المشتق،وبهذا يخرج الجناس المشابه من

(1) ر /107.
(2) =: كشاف اصطلاحات الفنون: 154/1.
(3) البلاغة العربية تأصيل وتجديد /189.
(4) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب /171.
(5) =: ل: 523/12، مادة (كلم).

تعريفه لأن طرفاه لايجمعهما اصل واحد في اللغة، واذا عدنا إلى العرض الموجز لاقوال السابقين في التجانس لم نجد من يضع هذا الشرط والقيد على الرغم من ان الخليل وابن المعتز وقدامة قد اشاروا إلى الاشتقاق في التجانس، إلاّ ان الرماني قد اخذ جانبا معكوسا من هذا الاشتقاق فوضع هذا القيد، ولاارى ذلك إلاّ تمهيدا لاخراج قسم آخر من الاشتقاق وهو باب التصريف الذي يتحدث عنه أيضاً بوصفه قسما من اقسام البلاغة المعجزة، وتابعه فيه العسكري[1] وابن رشيق[2]، والحق ان الفارق ضئيل جدا بين التجانس والتصريف عند الرماني، إذ انه في التجانس اشترط عودة اللفظتين أو الطرفين إلى اصل واحد في اللغة، أمّا في التصريف فالالفاظ تكون مشتقة بعضها من بعض، فضلا عن ان التجانس يكون في الالفاظ مع اختلاف المعاني أمّا في التصريف فالالفاظ المتصرفة من الاشتقاق تنعقد بمعنى واحد يجمعهما ولايشترط في التصريف تتابع الالفاظ في تركيب واحد، وهو مانجده في الجناس، وقد ذهب الدكتور عبد الله الطيب المجذوب إلى عد ذلك ماخذا على الرماني ومن تبعه فيه حيث قال: ((وقد بلغ التعنت بالنقاد القدامى ان يخرجوا من باب الجناس نوعا سموه التصرف والتصريف يعنون به ماكان مشتقا بعضه من بعض))[3] ويزيد الدكتور المجذوب في بيان العيب الاساسي في كلام الرماني ومن اتبعوا مذهبه بانهم ((بنوا الجناس على المناسبة بحسب الاصل،فاشترطوا التشابه في الاصل، من دون ان يكون الاصل واحدا، هذا وقد اعماهم اشتراطهم عن ان يفطنوا لما تشابهت فيه الحروف دون الاصول، وقد كان مذهب القدماء اسلم من مذهب الرماني إذ كانوا يعدون كل ماوقع فيه التشابه جناسا اوعطفا اوتعطفا على حد تعبيرهم))[4] وهذا القول تنقصه الدقة، إذ ان الرماني لم يشترط التشابه بل اشترط عودة الالفاظ إلى اصل واحد، ثم ان قوله يوحي بان القدماء لم يكن لديهم علم في التصريف، إذ أكّد على انهم كانوا يعدون كل تشابه جناسا، والحقيقة انهم برعوا في التصريف وان اطلقوا التجانس اطلاقا عاما شاملا لكل تشابه بين لفظتين، ويقول أيضاً: ((ليت ابن رشيق واصحابه اقلوا شيئا من التقيد باسلوب الجدال النظري وبنوا اراءهم على

(1) =: كتاب الصناعتين /321.
(2) =: العمدة:300/1.
(3) المرشد إلى فهم اشعار العرب: 134/2.
(4) المرشد إلى فهم اشعار العرب: 135/2.

مايجدونه في كلام الشعراء))[1]، وكانه تجاهل الرماني الذي بنى اراءه على ماهو افضل وابلغ من كلام الشعراء، وهو كلام خالق الشعراء ورب العالمين، فضلا عما نجده في النص من الفاظ لاتناسب الجدل العلمي نحو قوله (اعماهم)، وعلى الرغم مما قاله عن الرماني يعود فيقول عنه بعد ذلك ((انه كان ذا اراء واضحة شديدة في الجناس...وقد كان الرجل منطقيا يعجبه التدقيق والتعمق حتى عيب عليه ذلك))[2].

انواع التجانس ووظائفه عند الرماني:

بعد حده للتجانس يبدا الرماني ببيان انواعه وهي عنده ((مزاوجة ومناسبة فالمزاوجة تقع في الجزاء))[3]، والحق اننا لم نجد بين السابقين للرماني من يطلق تسمية (المزاوجة والمناسبة) على انواع التجانس، على الرغم من انهم قد تحدثوا عما تعنيه هذه المصطلحات، وهكذا يكون الرماني اول من اطلق هذه التسمية على هذه الانواع من التجانس وقد جاءت التسمية شاملة لكل مااطيل الشرح فيه عند السابقين له -لاسيما مصطلح المزاوجة -إذ ان المزاوجة في اللغة من ازدوج الكلام وتزاوج إذا اشبه بعضه بعضا في السجع أو الوزن أو كان لاحدى القضيتين تعلق بالاخرى[4]. وعند اهل البديع ((هي ان يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء))[5] وقد عدها عبد القاهر من النظم الذي يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع[6] وقد نقلها عن الرماني (ابن رشيق وابن ابي الاصبع المصري وابن مالك)[7] وقد وقد ميزها الاخير بقوله: ((هي ان تاتي في غير رد العجز على الصدر بمتماثلين في اصل المعنى والاشتقاق فحسب))[8] وقد تابعهم أيضاً ((عبد القاهر والرازي والسكاكي والقزويني والقزويني وشراح التلخيص وادخلوا المزاوجة في المحسنات المعنوية))[9].

النوع الاول: المزاوجة

(1) م ن: 136/2.
(2) ن: 139/2.
(3) ر / 99.
(4) =: ل: 293/2 مادة (زوج).
(5) كشاف اصطلاحات الفنون: 409/1.
(6) =: دلائل الإعجاز /70.
(7) =: على الترتيب: العمدة: 298/1 وتحرير التحبير:102/1، والمصباح /84.
(8) المصباح /84.
(9) معجم المصطلحات البلاغية:142/2.

لقد تابع الرماني القدماء واخذ عنهم معنى المزاوجة وامثلتها وشواهدها، ولايقلل ذلك من قدره واثره في هذا اللون البلاغي، لاسيما وقد بين بايجاز ماتؤديه المزاوجة من وظائف لاتؤديها غيرها من الالفاظ، ومن تلك الشواهد قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ ﴾[1]، يقول الرماني: ((أي جازوه بما يستحق على طريق العدل))[2] ولفظة (العدل) تدل على على جزاء العادل الذي يختلف عن الظلم،فالاعتداء هنا عدل وليس ظلما فضلا عن انه عقوبة وقصاص، ((والعقوبة تسمى باسم الذنب في غير موضع))[3] وقد جاءت هنا بصيغة الامر

(فاعتدوا) والقصاص هنا لايكون اعتداء لانه حق اباحه الله لصاحبه بل اوجبه له بهذه الصيغة[4]. وقد حسن التعبير عن الجزاء بالاعتداء لانه السبب، ويدخل هذا فيما يسمى بالمجاز المرسل، فعلاقة السببيه اظهرت الجزاء نتيجة ومحصلة لازمة للاعتداء، هذه النتيجة التي لم يشأ الله لها التاخير فجاءت (الفاء) للتعبير عن السرعة المكافحة وضرورة الترتب إذ لامكان هنا للدعوة إلى العفو والتسامح،فالموقف هنا بين المسلمين مع غير المسلمين لاكما في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[5]، إذ الموقف هنا بين المسلمين فقط[6]. وينظر الرماني إلى اللفظ الثاني في المزاوجة على انه استعارة - ولا نريد ان ندخل في تفاصيل الحديث عن هذه الاستعارة -لكننا نرى ان الذي الزمه بهذا القول هو القصد إلى مايحتويه التجانس هنا من دلالات يشترك فيها مع الاستعارة، منها تقوية المعنى في النفس وتقريبه من الادراك والحس والتأثير به في خوالج النفس والعقل معا))[7] فضلا عن انه يحاول من خلال ذلك تقريب الصورة وشرح المقصود لانه في معرض اجابة عن سوال في نكت إعجاز القرآن. ويوجز الرماني من خلال هذه الاستعارة للفظ الاعتداء الثاني وظائف التجانس، وهي هنا وظيفتان:

1- وظيفة دلالية:

(1) سورة البقرة: من 194.
(2) ر / 99.
(3) المحرر الوجيز: 143/2.
(4) =: الجامع لاحكام القرآن: 208/1.
(5) سورة البقرة: من 178.
(6) =: التصوير البياني / محمد ابو موسى /348.
(7) لغة القرآن الكريم /341.

عبر عنها بقوله: ((لتاكيد الدلالة على المساواة في المقدار))[1] وهو ما يؤكد مبدا (العدل) في الشريعة الاسلامية، فالتجانس هنا يحقق الجزاء العادل على طريق المساواة في المقدار، لذا جاء بعد ذلك قوله تعالى: (بمثل مااعتدى عليكم) مؤكدا هذه المساواة ولكي لا يكون الجزاء هنا جزاء مضاعفا كما كان سائدا في عرفهم قبل الاسلام من قتل رجلين أو اكثر جزاء قتل رجل واحد[2] أو غير ذلك.

2- وظيفة جمالية:

وقد عبر عنها الرماني بقوله: ((فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان))[3] إذ ان حسن البيان عنده ((ماجمع اسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد وحتى ياتي على مقدار الحاجة))[4] ولاشك ان هذه الاسباب إذا اجتمعت في التجانس كان له وقع كبير في النفس، فضلا عن ان الانسجام والتماثل في التجانس هو مما تنجذب إليه النفس العربية بطبيعتها، ولاشك ان حسن البيان في التجانس يرتكز على نقطتين:

الاولى: ان تكون مراعاة المعنى اولا أي قبل مراعاة المزاوجة اللفظية.

الثانية: البعد عن التكلف، بان تاتي المزاوجة على الطبع والفطرة وقد استدعاها المعنى استدعاءً دون تكلف اوتعسف، وهكذا تتحقق وظائف التجانس والتي عبر عنها الدكتور محمد زغلول سلام بقوله: ((وهذا النوع من التعبير اللفظي يهدف إلى ناحيتين، **الاولى صوتية**، وهي توفير نوع خاص من الانسجام في النغم والتقارب في الاصوات، **والثانية معنوية**، وهي سرعة الاستدعاء اللفظي للمعنى المراد التعبير عنه وهو مااراده الرماني في كلا القسمين المزاوجة والمناسبة))[5].

ومن ناحية اخرى، فان الآية وان كانت نزلت لسبب مخصوص وفي زمن محدد إلاّ ان الله تعالى قد جعلها -بهذا النظم - قاعدة ثابتة للمسلمين في كل زمان ومكان، ويعد ذلك من اسرار النظم القرآني الذي يشكل التجانس جزءا منه ومن اسرار اعجازه وخلوده ابد الدهر.

---

(1) ر / 99.
(2) =: ل: 191/9 مادة (صرف).
(3) ر / 99.
(4) ر / 107.
(5) اثر القرآن في تطور النقد العربي /242.

3- **وظيفة تعبيرية:**

وتتمثل هذه الوظيفة في (الإيجاز) والذي سنتناوله في النوع الثاني من انواع التجانس -ان شاء الله -.ومن شواهد (المزاوجة) أيضاً قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

وعلى الرغم من تعدد اقوال المفسرين في هذه الآية فانه يفهم منها ان دلالة التجانس هنا ان الله تعالى يجازيهم جزاء الاستهزاء فاخرج خبره عن جزائه اياهم مخرج خبره عن قولهم ذلك، فاللفظ الاول ظلم والثاني عدل، وارجح اقوال المفسرين ان الله تعالى يستهزى بهم فيظهر لهم من احكامه في الدنيا، أي من عصمة دمائهم واموالهم وغير ذلك، خلاف الذي لهم عنده في الاخرة من العذاب[2]. وتسمية العقوبة باسم الذنب مما كان سائدا عند العرب فقد كانوا ((إذا وضعوا لفظا بازاء لفظ جوابا وجزاء ذكروه بمثل لفظه وان كان مخالفا له في معناه وعلى ذلك جاء القرآن والسنة،من ذلك قول عمرو بن كلثوم:

إلاّ لايجهلـــــن احـــــد علينـــــا فنجهـــــل فـــــوق جهـــــل الجاهلينـــــا

فسمى انتصاره جهلا والجهل لايفتخر به ذو عقل، وانما قاله ليزدوج الكلام فيكون اخف على اللسان من المخالفة بينهما))[3] وقد ذكر الرماني هذا البيت من الشعر - بوصفه جزءاً من منهجه في الموازنة بين بلاغة القرآن وبلاغة النظم العربي - وقال فيه انه ((دون بلاغة القرآن لانه لايوذن بالعدل كما اذنت بلاغة القرآن وانما فيه الايذان براجع الوبال فقط))[4]، فالاية الكريمة تؤذن بالعدل فضلا عن ايذانها بان وبال قولهم وفعلهم راجع عليهم، فيكون الاستهزاء في الاخرة بتوبيخهم ولومهم على ماركبوا من المعاصي فضلا عما اعد لهم من العذاب[5].

وقد يكون استهزاء الله بهم في الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[6] -فانه من الله تعالى

(1) سورة البقرة: من 14 و 15.
(2) =: تفسير القرآن العظيم:52/1.
(3) الجامع لاحكام القرآن: 207/1.
(4) ر / 100.
(5) =: تفسير القرآن العظيم:51/1.
(6) سورة آل عمران: من 178.

استدراج[1] بدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ [2] وبدليل قوله ﷺ: ((إذا رايتم الرجل يعطيه الله مايحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا ان ذلك استدراج))[3]، ثم ان الله تعالى اكد ذلك في الآية ذاتها بقوله: (ويمدهم في طغيانهم يعمهون)، ويلحظ في الآية ان قولهم (إنما نحن مستهزئون) جاء باسلوب القصر لانهم يبتغون بهذا القول اقناع شياطينهم الذين خلوا اليهم ان مااظهروه للمومنين بعيد عن الحقيقة والايمان الصادق، وقد جاء قولهم هذا استئنافا كانه جواب لسوال مقدر:كيف امكن الجمع بين البقاء على الدين واظهار المودة للمومنين[4]؟ أمّا قوله تعالى: (الله يستهزى بهم) فقد جاء أيضاً استئنافا واقعا في جواب سوال مقدر: من الذي يتولى مقابلة صنعهم؟ فكان الاستئناف غاية الفخامة والجزالة إذ جاء ملائما للسوال، فقد تقدم لفظ الجلالة على الفعل لأن السائل يريد معرفة الفاعل الذي يتولى مجازاتهم[5]. ويلحظ في قولهم (مستهزئون) انه جاء بصيغة اسم الفاعل ليفيد ثبوت صدور الاستهزاء منهم، بيد ان قوله (يستهزى) جاء بصيغة الفعل المضارع ليفيد التجدد، أي تجدد املاء الله لهم ومده لهم إلى ان ياخذهم العذاب[6]. وثمة ملحظ بلاغي آخر يؤديه الفصل، ويبدع عبد القاهر في بيان سبب ذلك إذ يقول: ((وذلك الامر اوجب ان لايعطف وهو ان قوله (إنما نحن مستهزون) حكاية عنهم انهم قالوا وليس بخبر من الله تعالى، وقوله (الله يستهزى بهم) خبر من الله تعالى انه يجازيهم على كفرهم واستهزائهم واذا كان كذلك كان العطف ممتنعا لاستحالة ان يكون الذي هو خبر معطوفا على ماهو حكاية... ثم ان الجزاء إنما هو على نفس الاستهزاء وفعلهم له وارادتهم اياه لاعلى انهم حدثوا عن انفسهم بانهم مستهزئون،والعطف يقتضي ان يكون الجزاء على حديثهم عن انفسهم بالاستهزاء، لاعليه نفسه))[7].

وثمة ملحظ آخر في هذا التجانس، فقولهم (إنما نحن مستهزئون) قد تضمن التوكيد بـ (ان ونحن) وتضمن اسلوب القصر بـ (إنما) وصيغة اسم الفاعل (مستهزئون)، وكل ذلك له

(1) =: الجامع لاحكام القرآن : 209/1.
(2) سورة الانعام، من 44.
(3) اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين: 145/9، و =: الجامع لاحكام القرآن: 209/1.
(4) =: تحرير التنوير: 292/1.
(5) = م ن: 292/1.
(6) =: الكشاف:188/1، والتحرير والتنوير: 292/1 - 294.
(7) دلائل الإعجاز /231 - 233.

بعد نفسي إذ يظهر لهثهم وما تكنه صدورهم من قلق وارتباك خشية اعتقاد شياطينهم صحة ما اظهروه للمسلمين، وهكذا حاولوا حشد مؤكدات لاقناعهم بحقيقة امرهم، ويلحظ ان لفظة (مستهزئون) قد جاءت مطلقة دون اسناد إلى من وقع عليه الاستهزاء، اهو الرسول ﷺ ام المسلمون ام كتاب الله ام كل ذلك مجتمعا؟ جاءت مطلقة لتوجب لهم استحقاق العقوبة والجزاء. والتجانس هنا لايتضمن المساواة في المقدار وانما يكون الجزاء عذاب اليم دائم، لأن استهزاءهم هنا معصية وكفر، والحق هنا يعود لله تعالى فلابد من هذا الجزاء، وهو يختلف عن قوله (فاعتدوا) الذي تضمن المساواة لانه بين البشر، والحق هنا حق الانسان فيكون الجزاء مساويا للفعل والذنب لايزيد عليه، أمّا قوله (يستهزى)فقد جاء بصيغة المضارع وهي كما يقول البلاغيون تدل على استحضار الصورة، أي ان صيغته تحمل الحدث لتضعه امام الحاضر بجلاء ووضوح فضلا عن انها تدل على الاستمرار والتجدد[1].

وقوله (الله يستهزى بهم) تهديد قوي يصب عليهم ويباشر قولهم (إنما نحن مستهزون) وهو تهديد واقع لامحالة ودون تاخير بل هو مصاحب لقولهم وفعلهم ولكنهم لايشعرون لانه يمهلهم -(يمدهم)-((فيدعهم يخبطون على غير هدى في طريق لايعرفون غايته، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ غافلة عن المقبض المكين وهذا هو الاستهزاء الرعيب لاكاستهزائهم الهزيل الصغير))[2].

- ومن شواهد المزاوجة أيضاً عند الرماني قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [3] والاية قد جاءت في سياق الحديث عن كفار بني اسرائيل، وكيف رغبوا عن دعوة النبي عيسى عليه السلام إذ وكلوا به من يقتله غيلة، فذلك هو مكرهم، أمّا مكر الله فهو ((استدراجه لعباده من حيث لايعلمون، قال الزجاج: مكر الله مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء،واصل المكر في اللغة الاحتيال والخداع))[4] فمكرهم كان احتيالا وخداعا لعيسى عليه السلام باضمار امر قتله بينهم، أمّا مكر الله فهو تمثيل لتحقيق اخفاق مساعيهم وافشالها من قبل الله تعالى[5]، وقد حسن اطلاق (المكر) هنا إذ انهم خدعوا وضنوا أن قد

(1) =: من اسرار التعبير القرآني /51.
(2) في ظلال القرآن: 48/1.
(3) سورة آل عمران، من 54.
(4) الجامع لاحكام القرآن: 98/4 - 99.
(5) =: التحرير والتنوير: 256/3.

نجحت مساعيهم في قتل عيسى عليه السلام وكأن لفظ (المكر) هنا كما قال الرماني ((قد استعير للجزاء على المكر لتحقيق الدلالة على ان وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم))[1] فضلا عن ان التجانس قد حقق ايقاعا منظما تطرب النفس لسماعه، وحققت الالفاظ المتجانسة دلالة ايحائية تصويرية، وكاننا نرى صورة هؤلاء الماكرين وهم يتلفتون مختفين يلهثون في متابعة عيسى عليه السلام ويترقبونه ليوقعوه فيما اضمروه له، فهذا المكر باد على وجوههم وحركاتهم الماكرة ويظهر مافي صدورهم من غل ممزوج بالخوف والترقب، كل ذلك اوصلهم إلى التجرؤ على هذا الفعل الشنيع، فما كان جزاء الله لهذا المكر واصحابه إلاّ بما يحقق الفسل في مسعاهم ويظهر خيبتهم في اوهامهم، ذلك هو مكر الله، وقد جاءت الواو هنا لتفيد سرعة وانية الحدث فلم يتاخر مكر الله تعالى، ولم يقل (ثم مكر الله) بل كان مكره موازيا ومصاحبا في الزمن لمكرهم، ويفوقه في المقدار، وهكذا يكون التجانس في المزاوجة هو وحده الذي يجمع بين هذين الامرين ولايحقق ذلك بالفاظ اخرى تجمع هذه الصفات اللفظية والمعنوية.

(1) ر / 99.

النوع الثاني: المناسبة:

المناسبة عند الرماني ((تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى اصل واحد))[1] فالالفاظ المتجانسة هنا تعود إلى اصل واحد في المعنى اللغوي، وهو ماسمي فيما بعد بالجناس المشتق، وقد تطرق إليه غير واحد من السابقين للرماني كما اوضحنا من قبل. ومن شواهد المناسبة عند الرماني قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [2]، يقول الرماني ((فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير، والاصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشي، أمّا هم فذهبوا عن الذكر، واما قلوبهم فذهب عنها الخير))[3]، والاية جاءت في سياق الاخبار عن المنافقين، فاذا ماانزلت سورة وقراها النبي ﷺ،تلفتوا ونظر بعضهم إلى بعض، هل يراكم من احد؟ ثم انصرفوا عن الحق وتولوا عنه، وقوله تعالى (صرف الله قلوبهم) فيه مسالتان:

الاولى: انها جملة ((مستانفة استئنافا بيانيا لأن ماافاده قوله (ثم انصرفوا) يثير سوالا عن سبب عدم انتفاعهم بذلك واهتدائهم، فيجاب بان الله صرف قلوبهم عن فهم لامر تكويني قرروا الانتفاع بابلغ واعظ، وكان ذلك عقابا لهم بسبب انهم (قوم لايفقهون) أي لايفهمون دلائل))[4] وتظهر هنا وظيفة ثالثة -التي اشرنا اليها من قبل -[5] من وظائف تجانس وهي (الإيجاز)، إذ يسر تجانس ان يطوى ذكر هذا سوال مقدر اويطوى ذكر قوله (قوا لهم ذلك).

المسالة الثانية: وهي ان قوله (صرف الله قلوبهم) دعاء عليهم بالخذلان،وبصرف قلوبهم عما في قلوب اهل الايمان من الانشراح بسبب انهم قوم لايفقهون[6]. وهكذا يرسم نا تجانس صورة هولاء منافقين في انصرافهم، هذا الانصراف مشوب بقلق وذر وهم يتسللون على اطراف الاصابع وقد انشغل مؤمنون عنهم،كن عين الله لاتنشغل فتاتي دعوة مجاهرة تناسب فعلتهم هذه فينصرفوا قلبا وجسدا فهم اهل لضلال.

---

(1) ر / 100.
(2) سورة توبة: من 127.
(3) ر / 100.
(4) تحرير والتنوير: 69/11.
(5) =: ص من من هذه راسلة.
(6) =: كشاف: 223/2 والجامع لاحكام قرآن: 299/8.

-ومن شواهد المناسبة عند الرماني قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[1]، يقول الرماني: ((فجونس بالقلوب التقلب، والاصل واحد، فالقلوب تتقلب بالخواطر، والابصار تتقلب في المناظر والاصل التصرف))[2]، وقد حقق التجانس هنا ايجازا معجزا لمشهد من مشاهد القيامة، هذا المشهد الذي يختلف عن أي صورة يمكن ان تصورها الكلمات، فالفاظ الآية جسدت امامنا لوحة ارتسم فيها جزء من هول ذلك اليوم العظيم، فلفظة (يوما) جاءت بصيغة النكرة لتدل على تعظيم ذلك اليوم وتعظيم اهواله الشديدة[3]، أمّا الالفاظ المتجانسة فقد اظهرت لنا ابعادا نفسية ومشاعر خفية مجسدة بحركة هذه القلوب وتقلبها بين الطمع في النجاة والخوف من العذاب والهلاك، واضطرابها من شدة الفزع وعظمة الاهوال، ويصور التجانس مشهدا آخر وهو تقلب الابصار إلى اليمين والى الشمال، تنظر من أي ناحية يؤتون كتبهم والى أي ناحية يؤخذ بهم، وهكذا بهذا الإيجاز البليغ تصور اللفظتان المتجانستان في هذه الآية، الحركة الداخلية للقلوب، والحركة المرئية للابصار تصويرا دقيقا،ولاشك انها حركة النفس الحائرة والقلوب الخائفة المترددة، فهذا التقلب يجلي هذه المشاعر بين حيرة وشك ويقين وندم وخوف وامل، فهل من لفظة تؤدي ذلك؟ ولله در ابي الحسن إذ جمع كل ذلك بقوله: ((القلوب تتقلب بالخواطر والابصار تتقلب في المناظر))[4]. ولله دره حين عد التجانس وجها من وجوه وجوه بلاغة القرآن الكريم المعجزة.

- ومن شواهد جناس المناسبة عند الرماني قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[5]، يقول الرماني: ((فجونس بارباء الصدقة ربا الجاهلية والاصل واحد وهو الزيادة إلاّ انه جعل بدل تلك الزيادة المذمومة زيادة محمودة))[6]، وقد جاءت الآية في سياق وضع أهم قاعدة من قواعد بناء المجتمع الاسلامي واهم اساس من اسس النظام الاقتصادي لهذا المجتمع،وقد ضمت الآية بهذا النظم البليغ مقابلة بين الربا والصدقات وبين المحق والزيادة، وقد ضم النظم هذه المقابلة دون تحديد الزمن، لتكون قاعدة ثابتة يلمس صدقها وحقيقتها في كل زمان ومكان، كما ينبيء هذا الاطلاق بحصول المحق والزيادة في الدنيا وفي الاخرة،

(1) سورة النور: من 37.
(2) ر /100.
(3) =: لغة القرآن الكريم /341.
(4) ر / 100.
(5) سورة البقرة: من 276.
(6) ر / 100.

فقوله تعالى: (يمـق الله الربا) أي يذهب بركته في الدنيا وان كان كثيرا، وقيل: في الاخرة بان لايقبل منهم صدقة ولا ـج ولا جهاد ولا صلة، أمّا ارباء الصدقات فهو تنميتها في الدنيا بالبركة واكثار ثوابها بالتضعيف في الاخرة[1]. ولاشك ان التجانس هنا ظهرت وظيفته التي اشرنا إليها من قبل وهي (الإيجاز) فمقابلة مـق الربا بارباء الصدقات تؤذن بـذف مقابلين اخرين والمعنى: ((يمـق الله الربا ويعاقب عليه ويربي الصدقات ويبارك لصـبها))[2]، فضلا عماـقه التجانس من جمال في النـية الصوتية فتقارب الالفاظ خلق انسجاما في النغم تميل إليه النفس وتطرب لسماعه.

ومن خلال ماتقدم تتجلى بلاغة التجانس في القرآن الكريم، إذ لم يكن التجانس فيه مراعاة للالفاظ ومشاكلتها فـسب، بل كانت مراعاة المعاني هي الامر الاول وجاءت المشاكلة مؤدية تلك المعاني ابلغ اداء، ولو كانت المشاكلة اللفظية في التجانس هي الامر المراد اولا، لما عدل القرآن عنها في كثير من المواضع التي يمكن ان ياتي فيها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4].

(1) =: الجامع لاحكام القرآن: 362/3.
(2) التحرير والتنوير: 91/3.
(3) سورة يوسف: من 17.
(4) سورة المائدة: 118.